من فيينا إلى منظمة التجارة العالمية

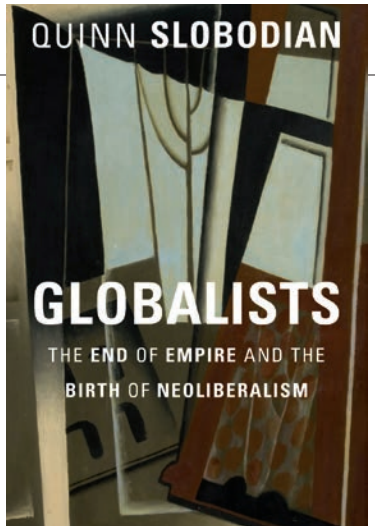

كوين سلوبوديان
أنصار العولمة: نهاية إمبراطورية وميلاد الليبرالية الجديدة
مطبعة جامعة هارفارد، كمبريدج، ماساتشوستس، ٢٠١٨، ٣٨١ صفحة، ٣٥ دولاراً

Quinn Slobodian
Globalists: The End of Empire and the Birth of Neoliberalism
Harvard University Press, Cambridge, MA, 2018, 381 pp., $35

الليبرالية الجديدة هي الآن الاسم الذي يطلق على كل الأمور التي باءت بالفشل في أواخر القرن العشرين والألفية الجديدة. وهذا المسمى الذي غالبا ما يساء استخدامه هو مرادف غير محبذ للتعبير عن الاعتقاد المادي والمصطنع بهيمنة السوق المتأصلة. وكان أول مؤيدي هذا المسمى هما مارغريت تاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية، ورونالد ريغان، رئيس الولايات المتحدة.

واليوم يعترف كثير من الشخصيات البارزة بخطئهم في هذا الشأن، مثل تشارلز مور (الكاتب الرسمي لسيرة مارغريت تاتشر)، وأوليفر ليتوين (المفكر البريطاني المحافظ)، والكاتب ديفيد فروم، منتقدين مبدأ "تيسير امتلاك المساكن" بتسببه في زيادة الديون أكثر من زيادة الشعور بالأمان، وأن مرونة أسواق العمل تهدد بالخطر أكثر مما توفر الفرص المواتية.

ويهدف "كوين سلوبوديان" في كتابه الأخير إلى متابعة التاريخ الفكري بدءا من إمبراطورية هابسبورغ وحضارة فيينا الفكرية البراقة وصولا إلى منظمة التجارة العالمية. ويعتقد أن رؤية النظام الاقتصادي التي سادت في نهاية المطاف كانت أقل اهتماما بمبدأ الحرية والعمل بلا قيود والتراث الفكري للفيلسوف آدم سميث مقارنة باهتمامها بحماية حقوق الملكية من المطالب السياسية الراديكالية التي ظهرت بعد ذلك من جانب الاشتراكية والقومية الوطنية على حد سواء.

ولا يولي هذا الكتاب اهتماما بالهيكل المالي الذي فرضته العولمة قدر اهتمامه بكيفية قيام نظام التجارة في العصر الحالي. ويتضمن بعض الرؤى المثيرة التي توضح حجم الآراء الحديثة بشأن العولمة التي كان منشؤها فيينا — وتهددها الحواجز الجمركية، المعرضة لمخاطر دوامة تراجع التجارة. فقد قام كلايف موريسون–بل، من غرفة التجارة في فيينا، ببناء نموذج مجسد لأوروبا مزود بحواجز جمركية مصنوعة من الخشب؛ وقام أوسكار مورغنستيرن، من معهد فيينا لبحوث دورة الأعمال، بإعداد رسم بياني يعبر عن انكماش التجارة العالمية في فترة "الكساد الكبير".

ويضع سلوبوديان سلسلة أبحاثه في مكانة أعلى من أبحاث جامعة فيرجينيا (نظرية الخيار العام) وجامعة شيكاغو (نظرية السيطرة النقدية وإلغاء القواعد التنظيمية). وجاءت ردود فعل أهم الأطراف المشاركة في القصة الجديدة — فريدريك هايك ويليم ربكه — إزاء ثلاث صدمات: الحرب العالمية الأولى، والكساد الكبير، وإنهاء الاستعمار. واستجابة لهذه الأوضاع، لجأ المفكران الرائدان إلى المؤسسات الدولية لتوفر نظاما يضمن حقوق الملكية والتقسيم الدولي للعمالة على أساس تحقيق الاستقرار. وكان المرشح الأصلي ليكون الضامن فوق القومي غير الإقليمي هو "غرفة التجارة الدولية"، ومن بعدها "عصبة الأمم".

ورأى أنصار الليبرالية الجديدة في كتاب سلوبوديان أن هذا النظام يحقق التوازن اللازم في العمل السياسي المتعلق بالتحول إلى الديمقراطية. فبدون فرض قيود، يمكن أن تقدم الديمقراطية الكثير من الوعود (التي يتعذر الوفاء بها). ورغم أن النظام الدستوري الداخلي يمكن أن يشكل قيدا فإن ارتكازه على إطار قانوني دولي سيجعله محكما.

وجاء كتاب "سلوبوديان" متعمقا ومثيرا للاهتمام، لكن ربما لم يكن متعمقا بالقدر الكافي، وهو يرى أن أبطال كتابه لا يدافعون عن حقوق الملكية إلا للإبقاء على الوضع الراهن. ولكن هذا التفسير غير مُقنِع: فقد جاءت استجابة مؤسسي الليبرالية الجديدة في فترة ما بين الحربين نتيجة انتشار مصادرة الممتلكات على أساس استنسابي — غالبا على أساس الهوية القومية أو العنصرية أو الدينية — حول العالم خلال ثلاثينات القرن الماضي وكانت تشكل جزءا متأصلا من سياسات التهميش ونزع الطابع الإنساني عن فئات معينة وتدميرها في نهاية الأمر. ولا يمكن استخدام مثل هذه التحليلات للاعتراض على نظام الضرائب، حتى وإن كانت ضرائب مرتفعة وتصاعدية، ما دام يُطبق على نحو يتسم بالمساواة وعدم التحيز. فالدفاع عن حقوق الملكية كان جزءا من اهتمام متعمق بحماية الكرامة الإنسانية ونابعا عنه. FD

هارولد جيمس، مؤرخ، جامعة برينستون وصندوق النقد الدولي